7- التجديد الشعري المهجري

تمهيد:

كما خرج الشعر العربي قديما من شبه الجزيرة العربية، وانتشر في البلاد المفتوحة بفضل الإسلام حتى وصل بلاد الأندلس، كذلك الأدب العربي الحديث، خرج من نطاق بلاد الوطن العربي إلى غيره من البلاد التي نفي إليها الشعراء العرب، أو هاجروا إليها، فنشأ شعر المنفى، كما نشأ الشعر المهجري، هذا الأخير كتب بأقلام عربية لشعراء من لبنان وسوريا دفعهم جور السياسة في أوطانهم، ودعتهم الحاجة إلى الرزق إلى أن يهجروا أوطانهم طلبا لأفق أوسع، وحياة أفضل، فاتجهوا صوب المهاجر الأمريكية، فكان لزاما عليهم أن يوفروا لأنفسهم ولعائلاتهم ظروف المعيشة، وأسباب التعلم، كما استطاعوا أن يفرضوا أنفسهم ويسمعوا صوتهم كمهاجرين عرب، فمارسوا الصحافة، ثم ما فتئوا أن تكتلوا في شكل مدارس كالتي نبتت في الوطن العربي (الديوان وأبوللو)، فأسست الرابطة القلمية [1] في المهجر الشمالي بالولايات المتحدة الأمريكية عام 1920، كما أسست في وقت لاحق العصبة الأندلسية [2] في المهجر الجنوبي في البرازيل.

التجديد في الرابطة القلمية:

نظّر **ميخائيل نعيمة** للأدب من خلال كتابه النقدي (الغربال)، ورأى بأن الأدب يقاس بحاجتنا إلى الإفصاح عما ينتابنا من العوامل النفسية، وحاجتنا إلى نور الحقيقة لنهتدي به، وحاجتنا إلى الجمال والموسيقى، كما عرف الشعر والشاعر بقوله: «فالشعر إذن هو لغة النفس، والشاعر هو ترجمان النفس» ، أما الشكل العمودي للقصيدة فهو في حاجة إلى مراجعة «الوزن ضروري أما القافية فليست من ضروريات الشعر لا سيما إذا كانت كالقافية العربية بروي واحد يلزمها في كل القصيدة» ، وقد قدم العقاد لكتاب الغربال

---

[1]- (أسست الرابطة القلمية في نيويورك بدعوة من عبد المسيح حداد، ترأسها جبران خليل جبران، وكان ميخائيل نعيمة مستشارا، من أعلامها إلى جانب هؤلاء إيليا أبو ماضي، نسيب عريضة، نعمة الحاج، رشيد أيوب، ندرة حداد، أسعد رستم، نعمة أيوب، جميل بطرس، وآخرون، لها دورية باسمها "الرابطة القلمية"، إلى جانب جريدة "السائح". ينظر محمد، عبد المنعم خفاجي: قصة الأدب المهجري، ط3، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1980، ص 82- 85).

[2]- (أسست العصبة الأندلسية في مدينة سان باولو بالبرازيل عام 1933، ترأسها ميشال معلوف، وبعده رشيد سليم الخوري (الشاعر القروي)، ثم شفيق معلوف، كما ضمت رياض معلوف، جورج معلوف، إلياس فرحات، قيصر سليم الخوري، عقل الله الجر، شكر الله الجر، حبيب مسعود، داود شكور، نظير زيتون، وغيرهم، وكان لها مجلة تصدر باسمها (العصبة الأندلسية) تنشر لأعضاء العصبة ولغيرهم من شعراء العربية . ينظر محمد، عبد المنعم خفاجي: المرجع نفسه، ص91- 93).

وأعجب بآراء النعيمي التحررية حول الشعر لأنها موافقة لما كانت تنادي به مدرسة الديوان قائلا:« رأيته ينعى على الشعر الرث الذي تركنا بلا شعر ولم يبق "في حياتنا ما ليس منظوما سوى عواطفنا وأفكارنا"، رأيته يريد من الشاعر أن يكون نبيا، وينكر أن يكون بهلوانا، ويريد من الشعر أن يكون وحيا وإلهاما».

وإيليا **أبو ماضي** يذهب مذهب زميله نعيمة، إذ لا يحصر هو الآخر الشعر في الألفاظ والقوافي قائلا في مقدمة ديوان (الجداول) في قصيدة (الفاتحة):

لست مني إن حسبت   الشعر ألفاظا ووزنـا

خالفت دربك دربـي   وانقضى ما كان منا

فالشعر لديه هو أكبر من أن يقف عند حدود الأوزان والقوافي، هو تعبير عن النفس ومساءلة لها باستمرار، وهذا ما وجدناه إجابة على محاورته في قصيدة (الشاعر)، حيث أجابها:

من أنت يا هذا؟ فقلت لها: أنــا   كالكهرباء أُرى خفيا ظاهــــــــرا

قالت لعمرك زدت نفسي ضلة   ما كان ضرك لو وصفت الشاعرا؟

فأجبتها: هو من يسائل نفســه   عن نفسه في صبحه ومسائـــــــه

وتشبيه الشاعر نفسه بالكهرباء يذكرنا بتعريف رمضان حمود للشعر من أنه (تيار كهربائي)، ومن حيث الموضوعات والأغراض ثمه ما يرفضه الشاعر ولا يرتضيه في شعره كالتشبيب والمدح ووصف الدمى:

أنا ما وقفت لكي أشبب بالطـــــلا   مالي وللتشبيب بالصهبــاء

لا تسألوني المدح أو وصف الدمى   إني نبذت سفاسف الشعراء

أما **جبران** فقد دعا إلى الثورة على أنظمة اللغة الموروثة، والاستعاضة عنها بلغة شعرية بقوله:«لكم منها - اللغة - ما قال سيبويه وأبو الأسود وابن عقيل، ومن جاء قبلهم وبعدهم من المضجرين المملين، ولي منها ما تقوله الأم لطفلها، والمحب لرفيقته، والمتعبد لسكينة ليله» ، ووجه الأدب الرابطي إلى الرومنسية، وكتب في الشعر المنثور، وامتد تأثيره إلى الشعراء العرب الذين قرأوه، ولو رحنا نستطلع شعر الرابطيين وعلى رأسهم إيليا أبو ماضي لكفانا أن نقرأ له قصيدة (الحجر الصغير) لنتوسم فيها سمات الأدب المهجري من

تشخيص للطبيعة، وتعبير بالصورة والرمز، فالليل يسمع وينحني ويستمع، والحجر الصغير (الإنسان الضعيف) يئن ويتألم ويتكلم ويشكو ويتبرم، ويكره البقاء في السد (المجتمع بأقويائه وضعافه)، والفجر يفتح جفنه، كما نلحظ تلاحما في الأفكار بحيث تسلمك الواحدة للتي تليها، وهذا ما اصطلح عليه بالوحدة العضوية، والدعوة إلى التفاؤل ونبذ التشاؤم، بل والتسامح أحيانا في قواعد اللغة، وهنا لا بد من الإشارة إلى أن شعراء الرابطة القلمية كانوا أكثر تحررا في اللغة وتسامحا فيها في حين كان أهل العصبة أكثر عناية باللغة واحتراما لقواعدها :

سمع الليل ذو النجوم أنينـــــــا　　وهو يغشى المدينة البيضاء

فانحنى فوقها كمسترق السمـــــع　　يطيل السكوت والإصغـــاء

فرأى أهلها نياما كأهل الكهــــف　　لا جلبة ولا ضوضــــــاء

ورأى السد خلفها محكم البنيـــان　　والماء يشبه الصحــــــراء

كان ذاك الأنين من حجر في الس　　د يشكو المقادر العميـــاء

[.......................................　　..............................]

حجـــــــر أغبر أنا وحقيـــــــر　　لا جمالا لا حكمة لا مضـاء

فلأغادر هذا الوجود وأمضـــــي　　بسلام إني كرهت البقـــاء

وهوى من مكانه وهو يشكـــــو　　الأرض والشهب والسمـاء

فتح الفجر جفنه فإذا الطـــــو　　فان يغشى المدينة البيضـاء

وإن شئت فاقرأ له شيئا من قصيدة (المساء)، وهي تعبير عن حالة شعورية انتابت الشاعر حين وقع في صراع نفسي بين نازعي التشاؤم والتفاؤل دعاه إلى إعمال خياله الذي أوحى إليه بتجسيد حالة التشاؤم من خلال شخصية سلمى التي تثيرها الهواجس فلا ترى من الطبيعة إلا التجهم والعبوس حين المساء، في حين يتقمص الشاعر شخصية المتفائل المرح الفرح الذي لا يرى من الطبيعة إلا كل جميل وإن أقبلت بليلها، وليس وراء المظهرين إلا الشاعر نفسه، وليست سلمى والطبيعة بمتناقضاتها إلا أدوات فنية اتخذها الشاعر للإفصاح عن هذا الجدل الرومنسي:

السحب تركض في الفضاء الرحب ركض الخائفين

والشمس تبدو خلفها صفراء عاصبة الجبيـــــــــن
والبحر ساج صامت فيه خشوع الزاهديـــــــــن
لكنما عيناك باهتتـــــان في الأفق البعيـــــــــد
سلمى بماذا تفكرين؟
سلمى بماذا تحلمين؟
[..]
مات النهار بن الصباح فلا تقولي: كيف مـــــــات؟
إن التأمل في الحيـــاة يزيد آلام الحيـــــــــــاة
فدعي الكآبة والأسى، واسترجعي مرح الفتـــــــاة
قد كان وجهك في الضحى مثل الضحى متهلـــــلا
فيه البشاشة والبهـــاء
ليكن كذلك في المساء

ما يلاحظ في شعر أبي ماضي نزعته التفاؤلية، وحبه للحياة، وحسبنا أن نقرأ له من القصائد (فلسفة الحياة، كن بلسما، ابتسم، ابسمي)، وقد نجد مثل هذا التفاؤل، والإرادة القوية لدى **ميخائيل نعيمة** بحيث لايرى من الطبيعة إلا وجهها الضاحك، ويتحدى المرض، بل يتحدى الموت، وهذا ما تلمسناه من خلال قصيدته (أغمض جفونك تبصر)، التي تصدرت ديوان (همس الجفون):

إذا سماؤك يومـــــا   تحجبت بالغيــــــوم
أغمض جفونك تبصر   خلف الغيوم نجــوم
والأرض حولك إمـــا   توشحت بالثلــــوج
أغمض جفونك تبصر   تحت الثلوج مـروج
وإن بليت بـــــــداء   وقيل داء عيـــــاء
أغمض جفونك تبصر   في الداء كل الـدواء
وعندما الموت يدنـو   واللحد يفغر فــــاه
أغمض جفونك تبصر   في اللحد مهد الحياه

لكن هذا العنفوان والتحدي سرعان ما يتلاشى ويندثر في قصيدته (النهر المتجمد)، فتتساوى المتناقضات في نفس الشاعر وكأنه أبو العلاء المعري في تأملاته وهواجسه، ولعل مرد تلك الحالات النفسية المتناقضة التي تعتري الشعراء من حين إلى آخر، فنراهم كالأطفال وفراشات الربيع مقبلين على الحياة مستبشرين بآمالهم، وطورا شيوخا منكسرين ناءت عواتقهم بأعباء الدنيا، وفي كلتا الحالتين يكون الشعر الناقل المترجم لهذه المشاعر:

قد كان لي يا نهر قلب ضاحك مثل المـــــروج

حر كقلبك فيه أهواء وآمال تمـــــــــــــوج

قد كان يضحي عكس ما يمسي ولا يشكو الملل

واليوم قد جمدت كوجهك فيه أمواج الأمـــــل

فتساوت الأيام فيه: صباحها ومســـــــاؤها

وتوازنت فيه الحياة: نعيمها وشقـــــــاؤها

سيان فيه غدا الربيع مع الخريف أو الشتـــــاء

سيان نوح البائسين وضحك أبناء الصفـــــــاء

التجديد في العصبة الأندلسية:

وفي قصيدة (على شاطئ "الريو")، يدعو الشاعر **فوزي المعلوف** إلى شعر تقدمي متحرر من الموضوعات القديمة من وصف مظاهر البداوة الجاهلية، والبكاء على الأطلال، ويحث على الخوض في موضوعات جديدة تواكب العصر:

خل البداوة رمحها وحسامـــــها والجاهلية نوقها وخيامـــــــها

مضت العصور الخاليات فما لنا نحيا بها متلمسين ظلامـــــــها

أيكون عصر النور طوع بياننـــا ونلم من تلك العصور حطامـها

ماذا تفيد الشعر وقفة شاعـــــر يبكي الطلول قعودها وقيامـــها

يرثي، ولا طلل هناك وإنمـــــا هي عادة ضَمن الخمول دوامها

رثت قصائده فمطلعها "قفـــــا نبك" الديار وقد يكون ختامـــها

شرط البلاغة وضع كل مقالـــة بمقامها إما طلبت زمامـــــــها

ولئن كان **إلياس فرحات** وهو من العصبة الأندلسية يدعو إلى الثورة على التقاليد المنافية للعصر، فإن العصبة الأندلسية في دعوتها التجديدية تشبه في بعض مناحيها مدرسة أبوللو من حيث أن من مبادئها وأهدافها تعزيز الأدب العربي والتآخي بين الأدباء العرب بغض النظر عن اتجاهاتهم ومذاهبهم، فلا غرابة أن مجلة العصبة الأندلسية كانت تنشر شعرا لأحمد زكي أبي شادي وغيره من شعراء العربية.

ومن الموضوعات التي فرضت نفسها على شعراء المهجر الحنين إلى الوطن،«إن الغربة مهما شغلتها المطامع لا تسد فراغا تتركه الأوطان في الأفئدة» ، فحب الأهل والأوطان عاطفة متجذرة في الإنسان، مهما توافرت له أسباب العيش الكريم في أرض الغربة، فشعراء المهجر لم ينسوا أوطانهم، ولم ينشغلوا عما يجري في الوطن العربي من أحداث، يقول إلياس فرحات في قصيدة موطني:

نازح أقعده حزن مقيـــم   في الحشا بين خمود واتقاد

كلما افتر له البدر الوسيم   عضه الحزن بأنياب حـداد

يذكر العهد القديم   فينــــــادي

أين جنات النعيم   من بلادي؟

زانها المبدع بالفن الرفيـع   منصفا بين الروابي والبطــاح

ملقيا من نسج أبكار الربيع   فوق أكتاف الربى أبهى وشاح

وللشاعر القروي **(رشيد سليم الخوري)** تعلق وهيام بموطنه لبنان وحنين إليه:

من وداع إلـــى وداع   ليس في ليله شعاع

ضربات بلا انقطــاع   أيها الدهر بين بين

بين بين

كل حظي من الوجود   قلم ناحل وعـــود

وأنا والورى هجـــود   أتسلى ببلبلـــــين

شاديين

إيه لبنان هل يــــراك   هائم شفه هـــواك

حبذا العيش في حماك   حبذا العيش ليلتين

ثم حين

ولا يخفى على المتأمل في شعر المهاجرين في الجنوب أوفي الشمال ولوعهم بالموشحات الأندلسية، ونظمهم على منوالها، هذا الشكل الجديد للقصيدة العربية الذي ظهر في الشعر الأندلسي، ويمكن اعتباره من أشكال التجديد التي عرفتها القصيدة العربية لتلائم الموسيقى والغناء بحيث أنها تقوم على الأقفال والأدوار التي تطول وتقصر، وتتناوب القافية وتتنوع من القفل إلى الدور.